الترجمة الأدبية وسلطة الأنساق الثقافية

(قراءة أنثروبولوجية معرفية)

شراف شناف

جامعة باتنة ⋄ الجزائر

ملخص

تروم هذه المقاربة البحث في مفهوم الترجمة الأدبية من منظور أنثروبولوجي معرفي، للكشف عن إشكاليات المفهوم التي لا ترتبط فقط بطبيعة النص وقضاياه اللغوية والأسلوبية والتشكيلية، بقدر ما ترتبط باليات التمثيل والتخييل والتحجيج والتحوير والتحويل، وإواليات الفهم والتفسير والتأويل، والنماذج الإدراكية المعقّدة التي تتبنين وفق أنماط متعدّدة من المثاقفة، وهذا بغية الدفاع عن أطروحة أساسية تتمثل في أن الترجمة الأدبية هي بالدرجة الأولى نظام معرفي رمزي ثقافي تأويلي يسهم في تنمية الوعي التثاقفي الحواري الذي يواجه ثقافات الصراع والصدام والنهايات، وليست مجرد نقل نصّي من لغة إلى أخرى. فالترجمة قد تخضع لسلطة الأنساق الثقافية وبالتالي تصبح مجرد عملية منفعلة، وإما أن تمارس نقدًا لهذه الأنساق الثقافية ومن تكون عملية فاعلة تنمي المتخيل الإنساني وتطور منظومة التواصل الإنساني أكثر.

Résumé

Cette approche vise à mettre en discussion le concept de la traduction littéraire du côté anthropologique et cognitif pour découvrir les problématiques du concept qui ne sont pas seulement liées à la nature du texte et aux questions linguistiques stylistiques et structurales. Elles sont autant liées aux techniques de représentation, d'imagination, d'argumentation et de transfert et aux moyens de compréhension et d'interprétation ainsi qu'aux modèles de perception compliqués qui se structurent selon différentes méthodes d'acculturation.

Ceci est entrepris pour défendre une thèse principale qui stipule que la traduction littéraire n'est pas seulement une transmission textuelle d'une langue à autre ; elle est au premier degré un système cognitif symbolique, culturel et interprétatif, qui participe au développement de la conscience communicative d'acculturation. Cette dernière qui confronte les cultures de collision et de lutte. Parce que la traduction subit le pouvoir des systèmes culturels, elle, en effet, devient ou une simple opération passive, ou elle pratique une critique de ces systèmes culturels, et donc est une opération active qui développe l'imaginaire humain et fait avancer l'organisation de la communication humaine.

1.سؤال الترجمة:

يكشف التاريخ التكويني للترجمة عن صراع براديغمي مزدوج سيطر على معظم الدراسات الترجمية النظرية، والورشات التطبيقية الإنجازية. فهو صراع لايخرج عن سلطة الثنائيات الآتية: (الترجمة ممكنة/ الترجمة مستحيلة)، (الأمانة/ الخيانة)، (النقل/ التأويل (التحويل)، (المطابقة/ الاختلاف)، (الزيادة/ النقصان)، (اللفظ/ المعنى)، (الشكل/ الوظيفة)،...

وهذه الثنائيات المتناسلة من بعضها البعض هي التي تحكمت في معظم الأسئلة التي طرحت بخصوص العملية الترجمية أو الفعل الترجمي؛ كالأسئلة الآتية: هل الترجمة ممكنة أم مستحيلة؟ هل الترجمة هي عملية نقل نص من لغة إلى أخرى أم هي تأويل وتحويل للنص من ثقافة إلى أخرى؟ هل المترجم يركز على اللفظ أم على المعنى؟ هل يهدف المترجم إلى تحقيق تكافؤ بين النص الأصل والنص المترجَم أم يهدف إلى توليد اختلافات بين النصين؟ وهذه الاختلافات بدورها تكشف ضمنيا عن أهمية الاختلاف الثقافي.

وهو الأمر الذي أشار إليه الفيلسوف الفرنسي الراحل "بول ريكور"؛ إذ كشف عن أن تاريخ الترجمة محكوم بمدخلين معرفيين أساسيين؛ الأول يتعامل مع الترجمة كنقل لرسالة لسانية من لغة إلى أخرى،والثاني يتعامل معها بالمعنى الواسع كمرادف لتأويل كل مجموعة دالة داخل نفس الجماعة اللغوية[1].

كما انتقد أيضا طبيعة الصراع الدوغمائي الذي تورّطت فيه الدراسات الترجمية؛ إذ ظلت تراوح بين فعل الإمكان وفعل الاستحالة مقترحًا تصوّرًا بديلا للخروج من هذا الانغلاق المفهومي والحدّية التصوّرية، يقول ريكور موضحا هذا : «إنّ تنوع اللغات يعبّر عن تنافر جذري، ومنه تكون الترجمة مستحيلة، نظريا، لأن اللغات قابلة للترجمة فيما بينها قبليا، أو أن الترجمة إذا أُخِذت كحدث فإنها ستفسّر بذخيرة مشتركة تجعل الترجمة ممكنة، لكن هنا يجب إما العثور على هذا الذخيرة المشتركة، وهو الطريق المؤدّي إلى اللغة الأصلية (الأولى)، أو إعادة

بنائها منطقيا وهو الطريق المؤدي إلى اللغة الكونية.. وسواء أكانت أصلية أو كونية، فإن هذه اللغة المطلقة يجب إظهارها من خلال موصوفاتها الصوتية واللفظية والتركيبية والبلاغية.أكرّر وأعيد أن البديل النظري هو: إذا كانت تعدّدية اللغات جذرية فإن الترجمة تكون متعدّرة بالقوة، أما إذا كانت ممكنة فإنه يجب إعادة الاعتبار لها عن طريق التقصّي في أصلها لإعادة بناء ظروف الحدث الملاحظ ما قبليا.

أقترح وجوب الخروج من هذا البديل النظري: قابل للترجمة مقابل غير قابل للترجمة وتعويضه ببديل آخر أكثر عملية ينبثق من الممارسة الترجمية ذاتها وهذا البديل هو الأمانة مقابل الخيانة، حتى لو أدّى ذلك إلى الاعتراف بأن ممارسة الترجمة تبقى دائما عملية مجازفة بحثا عن نظريتها».[2]

ولكن بديل **"ريكور"** لا يُقرأ في سياق التضاد الثنائياتي الميكانيكي، بقدر ما يُفهم في ضوء الجدل التماسفي بين طموح المترجم للوصول إلى النسخة المثالية، وإكراهات اللغة وإنزياحات الكتابة وعنف المتخيل التي تخون النسخة الأصلية ولا تريد – بشكل أو بآخر- الخضوع لسلطتها. ومن ثم فإن مشكلة الترجمة الكبرى هي مشكلة **"إيطيقية"**، تتعلق رأسا بكيفية تدبير المترجم للعلاقة المعقّدة بين الذات والغير أو الأنا والآخر أو المحلّي والغريب أو المعلوم والمجهول، أو الشرعي واللاشرعي،... يقول ريكور: «يبدو لي عمليا أن الترجمة لا تطرح فقط عملا فكريًا، نظريا أو تطبيقيا، ولكنها تطرح مشكلة أخلاقية تتمثّل في تقريب القارئ من الكاتب وتقريب الكاتب من القارئ مع ما يحمل ذلك من خطر على خدمة وخيانة سيّدين مما يعني ممارسة ما أحبّ تسميته الضيافة اللغوية وهي التي تعطي النموذج لأشكال الضيافة الأخرى والتي أراها متقاربة منها مثل الاعترافات والديانات: أليست هي الأخرى مثل اللغات الأجنبية الغريبة عن بعضها البعض بقاموسها ونحوها وبلاغتها وأسلوبها التي يجب تعلمّها كي نفهمها جيّدا».[3]

فالفعل الترجمي، إذن، فعل وظيفي، «ليس بمفهوم الواجب المحرج والمُضايق، ولكن بمعنى الشيء الذي يجب فعله من أجل أن يستطيع العمل الإنساني أن يواصل الاستمرار».[4]

وتتعقد مشكلة الترجمة أكثر مع الشعر، فمعظم نظريات الترجمة تقرّ بصعوبة ترجمة الشعر، بل باستحالة ذلك على الإطلاق، وهو ما أكدّه - على سبيل المثال لا الحصر- **"الجاحظ"** في كتابه **"الحيوان"**، وتعدّر ترجمة الشعر عند الرجل ليس بسبب «عدم كفاءة المترجمين، وإنما في امتناع الشعر عن الترجمة وعدم قابليته لها أصلامهما تكن براعة المترجم، فإنّ الشعر يأبى النقل، وإذا ما حُوّل عن لغته الأصلية، فإنه يفقد قيمته ويصير في اللغة المنقول إليها نصّا ممسوخًا مشوّهًا. إذا كانت ترجمة الشعر عملية عبثية ميئوسا منها فليس ذلك راجعا إلى المترجمين، وإنما إلى طبيعة الشعر نفسه الذي لا يحتمل التحويل.»[5] وتجسد ترجمة الشعر مأساة حقيقية في نظر **"بول ريكور"**، لأنه يطرح «مشكلة خطيرة تتمثل في الاتحاد الذي لا انفصام له بين المعنى والصوت وبين الدال والمدلول»[6] الأمر الذي يزجّ بالمترجم في إحراجات لا سبيل إلى إنهائها تتعلق رأسا بإيجاد المعادلات المعجمية والدلالية ذات الشحنات الوجدانية والسيكولوجية والإيحاءات الثقافية المتعددة، والتي يستحيل الوصول إلى حقيقتها وعمقها الوجودي.

ولقد تعدّدت مقاربات الفعل الترجمي، وتوسّعت نطاقاتها وتداخلت مجالاتها، وفتحت الوعي الترجمي على ممكنات معرفية وثقافية لم تكن في الحسبان، فنجد المقاربة الألسنية للترجمة التي تنطلق من أن الترجمة فن يعضّده علم الألسنية بمستوياته الصوتية والمعجمية والتركيبية والدلالية[7]. ونجد المقاربة التاريخية التحقيبية، مثلما ذهب إلى ذلك **"حسن بحراوي"**، الذي يرى أن الوضع الترجمي يشهد «على أن ضعف الذاكرة التاريخية للترجمة ناجم في المقام الأوّل عن قلة ما يسدّ مسدّ البحث في ماضيها على نحو منهجي ناجع وذي وجاهة، ومن جهة أخرى

على ذلك النزوع غير المبرّر إلى عزل الترجمة عن محيطها الذي تنبثق منه وتترعرع فيه.

والحال أنه لا يجوز لنا فصل تاريخ الترجمة عن تاريخ اللغات والآداب والثقافات، بل عن تاريخ الديانات والأمم، شريطة ألاّ يؤدي ذلك إلى الخلط بين هذه التواريخ وإدماج بعضها في بعض، بل بهدف إبراز أنه في كل مرحلة، وفي كل مجال تاريخي معطى، يتقاطع تاريخ الترجمة مع تاريخ الأدب واللغات ومختلف التبادلات بين الثقافات والألسنة.»[8]

كما فرضت أيضا المقاربة النفسية وجودها في الدراسات الترجمية؛ إذ أصبح من الضروري «أن يأخذ المترجمون التصور النفساني للغة الذات الإنسانية بعين الاعتبار في تنظيراتهم كما في ممارساتهم للترجمة. فاللغة ليست سلوكا فحسب، كما يذهب إلى ذلك المدافعون عن النزعة السلوكية، وهي ليست مجرّد أداة للتواصل، كما في نظريات التواصل، كما أنها ليست مجرد نظام من العلامات، كما يفترض الألسنيون، بل إن اللغة في نظر النفسانيين شرط أوّلي لكل علاقة ممكنة بالعالم الذي يسكنه الإنسان، وبخاصة إذا اعتبرنا الإنسان ذاتا، أي باعتبار أن الإنسان عندما يتكلم، فهو في الوقت نفسه متكلِّم (بكسر اللام) ومتكلَّم (بفتح اللام)... فقد بيّن التحليل النفسي أن للكلام تأثيرا كبيرا على كل إنسان، لأنه هو الذي ينتقل به، وهو صغير، من الوضع الحيواني إلى الوضع الاعتباري للذات الاجتماعية».[9]

وهناك عديد المقاربات التي لا يتّسع المجال لذكرها كلّها؛ كالمقاربة الفلسفية، والمقاربة الأنثروبولوجية، والمقاربة السيميائية، وغيرها وتكشف هذه الأنواع من المقاربات عن أنّ « المدافعين عن إمكان الترجمة الحرفية [يستندون] إلى المقولات التقليدية المتوارثة منذ عهد أرسطو، وإلى الثوابت اللغوية الإنسانية؛ ويعتمد آخرون - لرفضها- على نسبية اللغات، لأن لكل لغة نسقها الخاص بها؛ وحاول آخرون صياغة ضوابط للترجمة معتمدين على السيميوطيقا (الدليلية)

والسيميائيات؛ أو على نظرية استجابة القارئ، وخصوصا ما يقول منها بتفاعل القارئ مع النص،

حيث يقدح النصّ زناد الإدراك والتأويل والترجمة في قارئ مشروط بعوامل بيولوجية ونفسية واجتماعية وثقافية.»[10]

أما المقاربة التي لم تأخذ حظّها الوافر من التوظيف الاستعمال في الدراسات الترجمية، والتي نرى أن لها دورًا معرفيا خلاّقا في فهم العملية الترجمية والكشف عن استراتجياتها وملابساتها المعقّدة، فهي المقاربة الأنثروبولوجية المعرفية. وهي مقاربة لا تكتفي بالتساؤل عن حدود النص بمعزل عن الإنسان وقضاياه ومشكلاته المعرفية والسلوكية ورؤياته للعالم. وهي لا تربط إشكاليات الترجمة الأدبية بطبيعة النص اللغوي وقضاياه الصوتية والصرفية والتركيبية والأسلوبية فقط، بقدر ما تربطها بآليات التمثيل والتخييل واستراتجيات التحجيج ورهانات التحوير والتحويل والنسخ والتبديل، وكذلك ما يتعلق بإواليات الفهم والتفسير والتأويل، وكيفيات تشكّل وتشكيل النماذج الإدراكية المعقّدة التي تتبنين وفق أنماط متعدّدة من المثاقفة.

فالفرضية المعرفية التي تستنبطها هذه القراءة تتعلق بـ النظر إلى مفهوم الترجمة الأدبية نظرة معرفية تركيبية؛ فهي - بالدرجة الأولى- نظام معرفي رمزي ثقافي تأويلي يسهم في تنمية الوعي التثاقفي الحواري الذي يواجه ثقافات الصراع والصدام والتمركز الإثني والنهايات والعدمية،...وليست مجرّد نقل نصّي من لغة إلى أخرى. فالترجمة قد تخضع لسلطة الأنساق الثقافية بمختلف تجلياتها الدينية والإيديولوجية والعلمية والفنية،... وبالتالي تصبح مجرّد عملية منفعلة. وإمّا أن تمارس عملية فضح وكشف لهذه الأنساق ولطبقاتها المترسبة - عبر الأزمنة والأمكنة-في النصوص والخطابات ومن ثم تتحوّل إلى عملية فاعلة تنمّي المتخيل الإنساني وتفتح الذهنيات على أبعاد وآفاق أخرى لم تألفها، مما يطوّر منظومة التواصل الإنساني.

2. أهمية المقاربة الأنثروبولوجية المعرفية:

تنطلق الأنثروبولوجيا المعرفية في مقاربتها للنصوص والخطابات والظواهر المعرفية والرمزية والثقافية من لحظة بحثية أساسية تكشف عن كيفيات «اشتغال الفكر البشري في سياقات ثقافية مختلفة بما في ذلك من بيئات مادية واجتماعية مخصوصة.»[11] (وكذلك إبراز «التمثيلات التي يقيمها [الإنسان] في الثقافات المختلفة عن محيطه وعن علاقته به حيث تكون الثقافة نظاما [معرفيا] جماعيا، له بسائر النظم الثقافية علاقات شَبَهٍ وعلاقات تميّز واختلاف.»[12]

إن الأنثروبولوجيا المعرفية ـ في صميمها ـ بحث في طبيعة العلاقة بين الثقافة والذهن، وفي ما به يدرك الإنسان عالم الأشياء والأحداث والتجارب الجارية في محيطه ويتمثّلها، وفي ما به ينضّدها ويجعل منها نظاما ذا معنى[13].

وبالتالي، فهدفها الأساس هو الكشف عن «وجود اختلافات ثقافية في الإدراك والذاكرة والاستدلال.ومن أبرز المجالات المدروسة فيها مَقْوَلة الأشياء وتسمية الألوان وإدراكها عبر الثقافات. ومن تلك المبادئ المسطرة كون الفكر أو الذهن مسيّرًا ثقافيا... يختلف البشر في تصنيف الأشياء باختلاف الثقافة وليس هذا الاختلاف نفسيا أو عصبيا وإنما هو اختلاف ثقافي يُبين عن تموضع [المعرفية] تموضعا اجتماعيا، من ذلك أنّ مجموعة من الصور عُرضت على مجموعتين من الأشخاص (إفريقية وأوروبية) وهي صور تقبل التصنيف حسب اللون والشكل أو الوظيفة، فتبيّن أنّ الأوروبيين يميلون إلى تصنيفها أو تجميعها حسب اللون في طور الطفولة ولكنّهم يميلون إلى تصنيفها حسب الشكل في سنّ أكبر ثم حسب الوظيفة في طور الكهولة. ولكن الكهول الإفريقيين يميلون إلى تصنيفها حسب اللون» [14]

ولقد انتبه مترجموا ما بعد الكولونيالية إلى خطورة الترجمة كأداة أنثروبولوجية معرفية؛ فهي من جهة تثري المتخيل الإنساني وتنمّي الرأسمال المعرفي للجماعات البشرية وتولّد أشكالاً معرفية متعدّدة لم تألفها هذه الجماعات، ولكنها في الوقت ذاته تمرّر أنساقا تصوّرية مجهولة الأصل والنسب تشوش

ذهنيات ووجدان أصحاب الثقافات المنقول إليها، فهناك - دائما- كما يقول ما بعد الكولونياليين - « توأم صامت مصاحب لكل فكر ولكل كتابة».[15]

الأمر الذي يحتاج إلى « استراتجيات تقويضية للكتابة المزدوجة، وللتنوع الفرعي الذي ينشأ من خلالها، وللتوريات، والتحريفات، والمراوغات...»[16]

وتظهر الأهمية القصوى للمقاربة الأنثروبولوجية- المعرفية في تنويهها بأهمية الخيال والتخييل في العملية الترجمية، فالإنسان لا يستطيع أن يتواجد في العالم ويبتكر أشكال الحياة المتعدّدة من دون استخدام هذه القوى الوسائطية؛ الاستيهام والتخييل والتصوير،... وهي كلها تعود إلى امتلاكه للملكة الرمزية، كملكة خلاّقة تحلّ عديدا من مشكلاته وتجعله ينتقل بين العوالم بكل طلاقة، فيمتلك « القدرة على حلّ العلاقات القائمة وتهديمها ليخلق بذلك علاقات جديدة»[17]، و«يغزل الصور وينقضها ويصل بين عناصرها في صور جديدة خلال حركة مُنَاوِسَةٍ جيئة وذهابا.»[18] فهذه الملكة تعدّ «أمرًا ضروريا في كل معرفة مفهومية. »[19] كونها «تجعل العالم الخارجي عالما داخليا والعالم الداخلي عالما خارجيا فينتج المخيال الفردي إنتاجه للمخيال الجمعي. ولكي يعبر عن نفسه يستعمل الخيال أشكالا رمزية ورموزا. إلاّ أنه ينتج في المقام الأول صور الحضور والتمثلات والمحاكيات الاستقبالية.»[20]

فلا يمكن، إذن، أن نتعامل مع الترجمة كعملية انعكاسية ميكانيكية تنقل نصّا من لغة إلى أخرى وفق قوانين التطابق والتكافؤ والمشابهة...

بل هي عملية معقدة تقوم على مفاهيم مركبّة ؛كالتمثيل والتحويل والتأويل،... فهي خطاب إزاحي للغة، «تبدو اللغة فيه قائمة في حالة تعديل دائم للنص الأصلي، أي في حالة تغيير وإزاحة أبدية لأية إمكانية تتيح الإمساك بما أراد النص الأصلي تسميته»[21] (وهنا - بالضبط - تظهر الخطورة المضاعفة للترجمة؛ فهي من جهة تحريف دائم لبنيات النص الأصلية ولخصوصياته، ومن جهة أخرى فضح وتعرية لمركزياته وألاعيبه ودوغمائياته.

3. في مفهوم الترجمة الأدبية :

تصبح مسألة مشروعية الترجمة ذات طابع إشكالي معقّد خاصة عندما يواجه المترجم النصوص الأدبية ذات الحمولة التخييلية المكثّفة، في الوقت الذي يخفت هذا الحسّ الإشكالي حين التوجه شطر الخطاب التواصلي أو العلمي.[22]

ومصطلح (الترجمة الأدبية) في حدّ ذاته يحتاج إلى إعادة نظر، ذلك أنه لا وجود لترجمة أدبية وأخرى غير أدبية، وإنما المقصود هو ترجمة النصوص الأدبية الإبداعية. وكما يقول "أنطوان برمان *Antoine Berman*": الترجمة المسماة أدبية *Littéraire* غير دقيقة، لأن الأمر يتعلق بترجمة الأعمال الإبداعية، بغض النظر عن أجناسها؛ وهي أعمال دنيوية *Profanes* كما يسميها **"بنيامين"** مقابل النصوص المقدّسة *Sacrés* [23]. ذلك أن حفريات المعرفة الترجمية والوعي التأويلي يكشفان عن فقدان النسخة اللغوية الأصلية لينغمس المترجم في الحدث البابلي التاريخي، وتستدرجه الانزياحات الترجمية للنصوص إلى فضاءات لا قرار لها؛ فـ « النصوص الكبرى، بما هي كذلك تتمتع بنوع من الحركية ومن الرغبة في الخروج عن ذاتها، وتبديل موطنها وتغيير ملبسها وتحويل لغتها. عند هذه النصوص رغبة لا متناهية في الهجرة، في هاته النصوص تكشف اللغة عما تنطوي عليه من إمكانيات مستقبلية وعن تطلعّها للخروج عن ذاتها.

ونستطيع أن نقول إن الترجمة **"تستغلّ"** هاته الحركية، وتستثمر هذا التطلع، أو لنقل فقط إنها توظّفه.»[24]

وهكذا فالنصوص الكبرى ذات صبغة أدبية والترجمات الكبرى والمتميزة أدبية الروح، وكل ما هو أدبي وترجمي عابر للقوميات والثقافات واللغات، وهذا يعني «أنّ المترجم ينبغي أن ينطلق من نظرية وممارسة للأدب، ونظرية وممارسة للغة، وليس فحسب من نظرية أو ممارسة للترجمة؛ إذ إنّ كل ترجمة، في رأي ميشونيك، تحمل نظرية ضمنية عن الأدب وعن اللغة؛ ومن التجريبية والجهل بالحقيقة والواقع إنكار ارتباط الفعل الترجمي بالممارسة الأدبية والممارسة اللغوية، فاللغة والأدب والترجمة

تربطها علاقة تلازم وتضمّن: لا نظرية ترجمية بدون نظرية لغوية أو أدبية ولا نظرية لغوية بدون نظرية عن الأدب والترجمة؛ والنظرية الأدبية لابد لها من الاعتراف بالترجمة بؤرة كاشفة للممارسة الأدبية نفسها.»[25]

وإن كان لابد أن نفرق بين الترجمة العامة بكافة فروعها والترجمة الأدبية، فإننا نجد أن «الترجمة الأدبية لها معاييرها الخاصة التي تنفرد بها، والتي تجعلنا نقول أن ليس كل مترجم بقادر على التعامل مع نص أدبي، لما تنفرد به هذه النصوص من معايير خاصة وبُنى لغوية وفنيّة وسياقات لا تتوفر في الترجمة العامة. فالسياق اللغوي، مثلا، في العمل الأدبي ليس إلا مادة خاما لعملية الترجمة، لأن أي نص أدبي يشتمل على سياق آخر، أكثر تعقيدا، وهو العلاقة بين ثقافتين وطريقتين مختلفتين في التفكير والإحساس والتعبير، كما أن النص الأدبي يحمل في داخله شحنة جمالية تضاف إلى مضمونه، ويكتب أحيانا بلغة معقدّة يصعب على المترجم التعامل معها. حيث يكتب النص الأدبي عادة بلغة بعيدة عن مستوى اللغة العادي وأشكال الصياغة المألوفة. ومن ثم لابد من معايشة المترجم للأعمال الأدبية، حيث تعدّ هذه المعايشة شكلا من أشكال الانسجام الذي يمكّنه من نقل الأصوات والكلمات والجمل والصور. وباختصار كل ما في النص من عناصر جمالية، بأكبر قدر من الأمانة والانسجام بين صاحب العمل وترجمته.

وبالتالي يمكن القول إن الترجمة الأدبية في أحد جوانبها لقاء عاطفي، وتجاوب كلّي بين المترجم والنص الذي يعكف على ترجمته.»[26]

وفي هذا السياق تبدو العلاقة الأساسية بين المترجم والنص قائمة على ((فلسفة الإدراك الأدبي للنص)) أي تمثل البنية التصويرية والتخييلية الكلية التي يقوم عليها النص وتتفرع عنها بنى تصويرية وتخييلية صغرى.

ويستحيل إنجاز ترجمة أدبية متميزة من دون الوعي بمسألة الإيحاء؛ إذ «يبيّن مفهوم الإيحاء (*La Connotation*) أن كل لغة تحتوي على قيم تتجاوز البعد التواصلي أو الإخباري لترتبط بالبعد العاطفي، يدعوها **"بلومفيلد"** قيما إضافية، ويسمّيها

"وينريش" تأثيرات...[و] تأتي صعوبة ترجمة الجوانب الإيحائية في اللغة من كونها مرتبطة ارتباطا وثيقا باختلاف القيم الأسلوبية في الكتابة، كما أن الإيحاء يتولّد في اللغة بالعمل المقصود على تغييب السياق، فضلا عن علاقة الإيحاء بالمرادفات، أي بتعددية المعاني.. إن المناخ العاطفي الذي يحيط بالكلمات في اللغة الأدبية (الشعرية بدرجة أكبر) يعمل دائما على مقاومة الترجمة، ويطرح بحدّة مشكل حدود التواصل بين الذوات باستخدام لغات مختلفة...

هذا ما يجعل التحليلات الفلسفية لطبيعة اللغة تقيم تمييزًا بين الوظيفة التواصلية الفكرية العقلانية المنطقية للغة ووظيفتها التعبيرية والجمالية.»[27]

وفي هذه اللحظة بالذات يدخل المترجم في منطقة الرمال المتحركة التي يصعب من خلالها الاستقرار الكلي والنهائي على النسخة الترجمية المثالية.

4. الأنساق الثقافية:

يعدّ مفهوم النسق الثقافي من المفاهيم الإشكالية المعقّدة التي لا يمكن فضّ الحديث حولها بشكل كلّي ونهائي، فهو مفهوم انبثق أصلا لتوصيف طبيعة تشابك وتداخل الرموز التي ينتجها الإنسان باستمرار، والكشف عن ملابسات الصراعات التأويلية التي تعتور الواقع البشري.

ومصطلح النسق لا يجب فهمه بالمعنى العلمي الصارم - كما يقول رولان بارت- فـ «الأنساق ببساطة هي حقول تداع واقتران، وتنظيم فوق نصّي من الإشارات التي تفرض فكرة بنية معينة؛ إن مقام النسق، بالنسبة لنا، هو ثقافي أساسا: الأنساق أنماط معينة من الماسلف رؤيته، والماسلف قراءته، والماسلف فعله، والنسق هو شكل هذا الماسلف المُكوِّن لكتابة العالم. ومع أن جميع الأنساق ثقافية في الحقيقة، إلاّ أن واحدًا منها، من بين جميع الأنساق التي صادفناها، سنمنحه امتياز تسمية النسق الثقافي: إنه نسق المعرفة، أو بالأحرى المعارف البشرية، والآراء الشائعة، والثقافة كما ينقلها الكُتاب، والتعليم، وبصفة أعم وأشدّ انتشاراً، كما ينقلها النشاط

الاجتماعي بأكمله. هذا النسق مرجعه هو المعرفة، باعتبارها مجموع القواعد التي أوجدها المجتمع»[28]، وأضفى سلطته عليها بحيث لا يمكن تجاوزها أو اختراقها، وتُمنع مساءلتها وتعرية أسسها القائمة عليها، الأمر الذي يجعل الإنسان يتعامل مع أصول معرفية وثقافية مجهولة ولكنها تؤسسه وتشكل واقعه باستمرار.

وهو وضع الكتابة أيضا؛ إذ تأتي «انطلاقا من اللحظة التي لم يعد فيها ممكنا تبيّن من يتكلم وحيث يُعاين فقط أنّ الهُو شرع يتكلم.»[29]

ولم يعد المتكل - كما يرى فوكو- هو الشخص، «بل البنيات اللغوية ونسق اللغة ذاته... هكذا فإن ثمة، قبل كل وجود بشري، وكل فرد بشري، معرفة، ونظاما ونحن بصدد معاودة اكتشافهما...»[30]

وبالتالي، فإن «الطريقة التي يفكر بها الناس ويكتبون ويحكمون ويتكلمون (حتى النقاشات في الشارع والكتابات اليومية) بل حتى الطريقة التي يستشعر بها الناس الأشياء، والكيفية التي تثار بها حساسيتهم، وكل سلوكهم، تحكمها - في جميع الصور- بنية نظرية، نسق، يتغيّر مع العصور والمجتمعات، إلاّ أنه يظل حاضرا في كل العصور والمجتمعات.»[31]

وعلى هذا الأساس، فإن القضية المركزية في العصور الحديثة – حسب فوكو دائما- «لم تعد هي الكيفية التي يراكم بها الإنسان المعرفة حتى يصير سلطة، ويصدر الحكم على العالم، ولكنها قضية الكيفية التي يمكن بها أن نفكر في ما لا يمكن أن نفكر فيه...[فـ] الذي لا نفكر فيه، والذي يتفلّت حين تكتب اللغة نفسها، ولكنه، على أي حال، يشكّلنا- أي يشكل كلامنا ونماذج التفكير- قد أصبح هو موضوع البحث عند التقويضيين.» [32]

وعند المتخصّصين في مجال الأنثروبولوجيا المعرفية، لأنه نوع من التأمّل والكشف عن البنيات الإدراكية والتمثيلية والشعورية العميقة التي تدبر الكون المعرفي لدى الإنسان، وتؤطر العلاقة بين الأنا والآخر، فهذه المجالات المعرفية

الحديثة هي التي توجّه المترجم «نحو التأمّل العميق لما هو مسكوت عنه، نحو إضاءة ما هو مظلم، نحو استنطاق للغة ذلك الذي كان صامتا. هذا "الآخر" (*Other*) لم تلق الأضواء عليه بعد بالمعنى الإيجابي للمعرفة، ولا يمكن لذلك أن يكون، ولكنه تتمّ إضاءته بوصفه بقعة مطموسة، أو منطقة مظلمة تلازم التفكير الواعي.»[33]

بناءً على هذا التصوّر ما بعد الحداثي الذي يتجاوز عقل المطابقة إلى عقل الاختلاف، لم يعد ينظر إلى الترجمة الأدبية على أنها مجرّد نقل لغوي نصّي دقيق من لغة المنطلق إلى لغة الهدف، بل هي فعل فكري وفنّي يكشف عن جدلية اللغة والفكر والتاريخ، إنها «ترجمة لذواتنا إلى فكر لغة أخرى.»[34] وهو الأمر الذي جعل "هيدغر" يتخلّى« عن فكرته الخاصة حول أهمية الذات بوصفها كائنا عارفا، إلى أهمية اللغة بما هي القوة التي تفكك الذات.»[35]

ومن ثم تتعقد مهمة المترجم أكثر، ويصبح مطالبا بأن يكشف عن مراوغات اللغة للفكر وللتاريخ وعن سلطة التاريخ على اللغة وهيمنة أنماط معينة من ((رؤى العالم)).

إنّ المطلوب من المترجم اليوم هو إزاحة وزعزعة استقرار المفاهيم المدركة سلفا، التي تنمط الكلمات وتحنّط رؤية الإنسان للكلمات. لابد أن يكون مستعدّا دوما لاستخلاص رنين الصمت واستعادته من خلال القول. [36]

فتصبح الترجمة بذلك عملية البحث عن الوئام الفكري والتعايش التاريخي والثقافي بين أشكال ومستويات متعددة من السلط؛ سلطة اللغة وسلطة الفكر وسلطة التاريخ وإحداث نوع من التفاهم الوجودي بين ما تؤسس له اللغة وتصرّح به وتقرّض به وبين ما تتنكر له وتتنصل منه وتقصيه.

الإحالات:

(1)- ينظر: بول ريكور، عن الترجمة، تر: حسين خمري، الدار العربية للعلوم (بيروت)، منشورات الاختلاف (الجزائر)، ط1 (2008)، ص 31.

(2)- ينظر: المرجع السابق، ص 34.

(3)- المرجع نفسه، ص 46.

(4)- المرجع السابق، ص 41.

(5)- عبد الفتاح كيليطو، لن تتكلم لغتي، دار الطليعة (بيروت)، ط1 (2002)، ص 35.

(6)- بول ريكور، عن الترجمة، ص 18.

(7)- ينظر: جورج مونان، المسائل النظرية في الترجمة، تر: لطيف زيتوني، دار المنتخب العربي (بيروت)، ط1 (1994)، ص 26.

(8)- حسن بحراوي، أبراج بابل (شعرية الترجمة: من التاريخ إلى النظرية)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية (الرباط)، دار أبي الرقراق (الرباط)، ط1 (2010)، ص 06، 07.

(9)- حسن المودن، الترجمة والتحليل النفسي (ترجمة فرويد مهمة بلا حدود، وترجمة لاكان شبه متعذّرة)، مجلة (العربية والترجمة)، السنة الرابعة، ع 10، 2012، ص 69، 70.

(10)- محمد مفتاح، درجات الأيقون وترجمة الشعر، ضمن كتاب: الترجمة والتأويل، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية (الرباط)، ط1 (1995)، ص 131.

(11)- الأزهر الزنّاد، نظريات لسانية عَرفنية، الدار العربية للعلوم (بيروت)، دار محمد علي (تونس)، منشورات الاختلاف (الجزائر)، ط1 (2010)، ص 21.

(12)- المرجع نفسه، ص 21.

(13)- المرجع نفسه، ص 21.

(14)- ينظر: الرجع نفسه، ص 21.

(15)- إدوين غينتسلر، في نظرية الترجمة: اتجاهات معاصرة، تر: سعد عبد العزيز مصلوح، المنظمة العربية للترجمة (بيروت)، ط1 (2007)، ص 416.

(16)- المرجع نفسه، ص 416.

(17)- كريستوف فولف، علم الإناسة (التاريخ والثقافة والفلسفة)، تر: أبو يعرب المرزوقي، الدار المتوسطية للنشر (تونس)، كلمة (أبو ظبي)، ط1 (2009)، ص 357.

(18)- المرجع نفسه، ص 357.

(19)- المرجع نفسه، ص 358.

(20)- المرجع نفسه، ص 390.

(21)- إدوين غينتسلر، في نظرية الترجمة: اتجاهات معاصرة، ص 379.

(22)- حميد لحمداني، الترجمة الأدبية ومدى مشروعيتها في ضوء البحث اللساني وجمالية التلقي، ضمن كتاب: الترجمة والتأويل، ص 101.

(23)- ينظر: أنطوان برمان، الترجمة والحرف أو مقام البُعد، تر: عز الدين الخطابي، المنظمة العربية للترجمة (بيروت)، ط1 (2010)، ص 37.

(24)- عبد السلام بنعبد العالي، في الترجمة، تر: كمال التومي، دار توبقال (المغرب)، ط1 (2006)، ص 88.

(25)- عبد الكبير الشرقاوي، شعرية الترجمة (الملحمة اليونانية في الأدب العربي)، دار توبقال (المغرب)، ط1 (2007)، ص25.

(26)- أحمد حمّاد، الترجمة الأدبية بين قيود النص وحرّية الإبداع، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع4، مج30، أبريل– يونيو 2002، ص 239، 240.

(27)- حميد لحمداني، الترجمة الأدبية ومدى مشروعيتها في ضوء البحث اللساني وجمالية التلقي، ص 103، 104.

(28)- رولان بارت، التحليل النصي (تطبيقات على نصوص من التوراة والانجيل والقصة القصيرة)، تر: عبد الكبير الشرقاوي، دار الزمن (المغرب)، ط1 (2001)، ص 110.

(29)- المرجع نفسه، ص 116.

(30)- ميشال فوكو، همّ الحقيقة (مختارات)، تر: مصطفى المنساوي وآخرون، منشورات الاختلاف (الجزائر)، ط 1 (2006)، ص 08، 09.

(31)- المرجع نفسه، ص 10.

(32)- إدوين غينتسلر، في نظرية الترجمة (اتجاهات معاصرة)، ص 359، 360.

(33)- المرجع نفسه، ص 360.

(34)- المرجع نفسه، ص 365.

(35)- المرجع نفسه، ص 365.

(36)- المرجع نفسه، ص 368.